اللغة أم العلوم

أ.د. مازن المبارك
رئيس قسم اللغة العربية وآدابها

يدرك المتتبع لنشأة علماء المسلمين ومراحل تعلّمهم أنه كانت لهم أصول راسخة يتبعونها في التنشئة العلمية أو ما نسمّيه اليوم بالتربية والتعليم، وأنه كان من أوكد تلك الأصول أن يتقن المتعلم كتاب الله وما يتصل به أو يتطلبه ذلك الإتقان من علوم القرآن وعلوم العربية، فما من عالم في القراءات أو التفسير أو الفقه إلا هو عالم باللغة ونحوها ودلالات ألفاظها وأساليب العرب في التعبير بها، وما من مختص في علم من العلوم إلا هو متقن لأصول ثقافية عامة تلقّنه مبادىء علوم تخدم عقيدته واختصاصه أياً كان ذلك الاختصاص، وما من مفسر أو فقيه أو مؤرخ إلا قد أتقن ـ قبل أن يسلك طريق اختصاصه ويبرع فيه ـ العلوم التي تخدم اختصاصه وتؤهله للبراعة فيه، ومن أبرز تلك العلوم علوم اللغة العربية التي سماها علماؤنا «علوم الآلة» لإدراكهم أنها آلة علومهم، إذ بها يفهمون علومهم، وبها يعبرون عنها ويؤلفون فيها، وإذا كان الاختصاص العلمي مادة أو فكراً فإن اللغة بألفاظها وقواعدها وأساليبها هي المظهر أو الصورة التي تتجلى فيها تلك المادة أو ذلك الفكر، وكلما كانت لغة العالم أغزر لفظاً وأدق استعمالاً وأوضح تعبيراً، وكلما كان العالم أكثر دربة في معرفة أساليب اللغة وأكثر تمرّساً ودراية بنصوصها، كان أكثر غوصاً على حقائق علمه وأدق فهماً لمسائله وأكثر مهارة في التأليف فيه وبراعة في عرض مسائله ولما كانت اللغة هي الطريق إلى الفهم وبألفاظها أنزل الوحي وبأساليبها عُرض الوعد والوعيد، وبكلماتها صُوّر النعيم والجحيم، وصيغت الحدود والأحكام، وبها نطق النبي صلى الله عليه وسلم، فكم أضلّ الضعف بها أقواماً فزاغ منهم الفهم، وانحرفت العقيدة، وفسد الحكم، ولله درّ عمر بن الخطاب ما كان أبعد نظره وأثقب

• قال ابن فارس: «ومن قصر علمه عن معرفة اللغة غولط فغلط».

فهمه حين قال: «تعلّموا العربية فإنها من دينكم». ولما كانت العربية هي المدخل إلى فهم القرآن وعلوم الشريعة فقد كانت معرفتها واجبة لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب كما قال ابن تيمية. ورحم الله أبا الفتح عثمان بن جنّي (ت ٣٩٢ هـ) الذي أدرك خطر اللغة فعقد في كتابه النفيس (الخصائص) باباً عنوانه «باب فيما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينية». قال فيه: «اعلم أن هذا الباب من أشرف أبواب الكتاب وأن الانتفاع به ليس إلى غاية، ولا وراءه من نهاية. وذلك أن أكثر من ضلّ من أهل الشريعة عن القصد فيها، وحاد عن الطريقة المُثلى إليها، فإنما استهواه واستخف حلمه ضعفُه في هذه اللغة الكريمة الشريفة التي نجوطب الكافة بها، وعُرضت عليها الجنة والنار من حواشيها وأحنائها، وأصل اعتقاد التشبيه لله تعالى بخلقه منها، وجاز عليهم بها وعنها...»(١).

وضرب ابن جني أمثلة كثيرة تدل على أن الضعف في العربية وقلّة التمرس بأساليبها كثيراً ما أدّيا إلى سوء الفهم وضلال العقيدة، ثم قال: «وأذكر يوماً وقد خطر لي خاطر مما نحن بسبيله، فقلت: لو أقام إنسان على خدمة هذا العلم ستين سنة حتى لا يحظى منه إلا بهذا الموضع لما كان مغبوناً فيه ولا منتقص الحظ منه ولا السعادة به... وإذا ثبت هذا الموضع ثبت به لنا أصل شريف يعرفه من يعرفه. ولولا ما تعطيه العربية صاحبها من قوة النفس ودُربة الفكر لكان هذا الموضع ونحوه مجوزاً عليه غير مأبوه له. ولله درّ قُطْرب(٢)، فإنه قد أحرز عندي أجراً عظيماً فيما صنّفه من كتابه الصغير في الرد على الملحدين، وعليه عقد أبوعلي(٣) ـ رحمه الله ـ كتابه في تفسير القرآن. وإذا قرأته سقطت عنك الشبهة في هذا الأمر بإذن الله وعونه»(٤).

---

(١) الخصائص ٣/ ٢٤٥ وفيه حديث طويل عن فساد مذهب المشبهة وجهل أصحابه بالعربية.

(٢) هو محمد بن المستنير، النحوي اللغوي البصري المتوفى سنة ٢٠٦ هـ، له كتاب «الرد على الملحدين في تشابه القرآن» وغيره. انظر معجم الأدباء ١٩/ ٥٣ وكشف الظنون ١/ ٨٣٩.

(٣) هو الحسن بن أحمد الفارسي المتوفى سنة ٣٧٧ إمام عصره في علوم العربية وشيخ ابن جني. انظر ترجمته في إنباه الرواة ١/ ٢٧٣ ومعجم الأدباء ٧/ ٢٣٣ ـ ٢٦١.

(٤) الخصائص ٣/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

ولم يكن علماؤنا غافلين عما نبّه عليه ابن جني من خطر اللغة وأبانه من أثرها في فهم العلوم عامة وفهم الشريعة خاصة، لذلك كانت مبادئها وأصولها وقواعدها جزءاً من الثقافة العامة التي لا بد منها لكل طالب علم، وكان العالم ـ سواء كان مفسراً أم محدثاً أم فقيهاً أم غير ذلك ـ متقناً للغة وعلومها، فحماد بن سلمة صاحب الإفتاء والحديث في البصرة يخطىء سيبويه ويكون سبباً في انصرافه إلى ملازمة الخليل وتعلّم النحو(١). قال ابن حجر: «حمّاد بن سلمة بن دينار، مفتي البصرة، محدّث حافظ ثقة، نحوي...، وقال أبوعمر الجرمي: ما رأيت فقيهاً أفصح من عبدالوارث، وكان حمّاد بن سلمة أفصح منه»(٢).

والإمام الشافعي، صاحب المذهب، له لغة قلّ نظيرها في سلامتها ودقتها وإشراق صفحتها، وقد شهد له الأثبات من أهل اللغة والأدب بأنه حجّة في اللغة.

قال الجاحظ: «نظرت في كتب الشافعي فإذا هو درّ منظوم لم أر أحسن تأليفاً منه»(٣)، وقال الأصمعي: «صححت أشعار البدويين على شاب من قريش يقال له محمد بن إدريس. وقال عبدالملك بن هشام: «الشافعي بصير باللغة، يؤخذ عنه، ولسانه لغة فاكتبوه.. وقالوا: إن لغة الشافعي وحده يُحتج بها. وقال الزعفراني: ما رأيت الشافعيّ لحن قط»(٣).

وكذلك كان الإمام الطبري المفسر والمؤرخ ذا ثقافة واسعة عميقة محيطة باللغة وعلومها، مشهوراً بفصاحة اللسان(٤) وجودة الأسلوب، وكان في اختصاصه الذي برع فيه ـ وهو التفسير والتاريخ خاصة ـ

(١) انظر القصة في معجم الأدباء ١٠/ ٢٥٥.
(٢) تهذيب التهذيب ٣/ ١١.
(٣) تهذيب التهذيب ٩/ ٢٧.
(٤) معجم الأدباء ١٨/ ٤٠.

آوياً إلى ركن ركين من الثقافة اللغوية والنحوية. قال الحسن بن علي الأهوازي: كان أبو جعفر الطبري عالماً بالفقه والحديث والتفسير واللغة والنحو والعروض(١)، واشتهر بأنه كان يحفظ شعر الجاهلية والإسلام ممّا لا يجهله إلا جاهل، وشهد له ثعلب بأنه من حذّاق الكوفيين في النحو(٢)، وقالوا إن الطبري كان كالقارىء الذي لا يعرف إلا القرآن، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث، وكالفقيه الذي لا يعرف إلا الفقه، وكالنحوي الذي لا يعرف إلا النحو، وكالحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب(٣).

وكذلك كان معظم علماء الأمة ممّن نطالع أخبارهم في كتب الطبقات وتراجم الرجال، يبرع أحدهم في علم أو أكثر من العلوم، ويكون على اختصاصه صاحب مؤلفات في العلوم التي أهّلته للبراعة في اختصاصه، وهي علوم اللغة والنحو والبلاغة، بل لقد كانت علوم العربية جزءاً من الأصول العامة التي كان على المتعلّم أن يتقنها قبل أن يأخذ طريقه إلى الاختصاص، وكان كثير من العلماء يتقنون تلك العلوم إتقانهم لاختصاصهم حتى لم نعد نعرف بأيها كانوا أكثر اختصاصاً! وظلت تلك الطريقة متبعة في التعليم حتى عصور متأخرة، وظلت تؤتي ثمارها الطيبة علماً وتأليفاً. وحسبنا أن نذكر الفيروزآبادي والأنصاري والسيوطي أمثلة من أهل تلك العصور.

فالمجد الفيروزآبادي (٧٢٩ ـ ٨١٧ هـ) له نحو من ستين كتاباً في التفسير والحديث والفقه واللغة والنحو وتراجم الرجال(٤).

---

(١) معجم الأدباء ١٨/ ٤٥. (٢) معجم الأدباء ١٨/ ٦٠. (٣) معجم الأدباء ١٨/ ٦١.

(٤) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، له في التفسير: بصائر ذوي التمييز في لطائف كتاب الله العزيز. وتنوير المقباس في تفسير ابن عباس، وفي الحديث: تسهيل طريق الوصول الى الأحاديث الزائدة على جامع الأصول. وفي الفقه: عدة الحكام في شرح عمدة الأحكام. وفي اللغة: القاموس المحيط. والروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف. وفي النحو: مقصود ذوي الألباب في علم الإعراب. وفي التراجم: البلغة في تراجم أئمة اللغة. والمرقاة الأرفعية في طبقات الشافعية. والمرقاة الوفية في طبقات الحنفية. وغير ذلك كثير فانظره في هدية العارفين ٢/ ١٨٠.

والقاضي الشيخ زكريا الأنصاري (٨٢٤ ـ ٩٢٦ هـ) صاحب تصانيف كثيرة في الفقه والتفسير والحديث والنحو والبلاغة والتجويد(١).

وأما الجلال السيوطي (٨٤٩ ـ ٩١١ هـ) فقد بلغت آثاره نحواً من ألف مؤلّف بين كتاب ضخم ورسالة صغيرة، وهي في علومٍ كثيرة منها الفقه والتفسير والحديث واللغة والنحو والتاريخ(٢).

وهكذا كان (الاختصاص) عند علمائنا داعية إلى إتقان علوم تسبقه وتلازمه وتكون دعامة له تعين عليه وتساعد على إتقانه.

وانقضى دهر وكرّت سنون، وتحولت الحال فجدّت أفكار وطرائق، وساءت النتائج، وكان للمغالاة في فهم (الاختصاص) أكبر الأثر في ذلك كله.

لقد سيطرت فكرة الاختصاص وجعلت شعاراً لكثير من المناهج والمؤسسات التعليمية والتربوية، وفهم الكثيرون أن التخصص يعني قصر المختص على علمٍ واحد، وظنوا خطأ أن مجرد معرفة القراءة والكتابة، أي معرفة، يُؤهل صاحبها لمتابعة اختصاصه، أخذنا بذلك وقلّدنا فيه غيرنا، وطبقناه عملياً في معظم أقسامنا وكلياتنا الجامعية، وفصلنا في المناهج والمقررات ـ باسم التخصص ـ بين علوم هي في الثقافة الإسلامية والعربية علوم متكاملة، فكانت النتيجة أن أصبح أكثر المتخرّجين من غير أقسام اللغة العربية يعدّون أنفسهم غير ملزمين

(١) زين الدين زكريا بن محمد الأنصاري صاحب أسنى المطالب والإعلام بأحاديث الأحكام وبلوغ الأرب في شرح شذور الذهب، وعشرات من الكتب في علوم مختلفة. انظر آثاره مفصّلة في مقدمة كتابه «الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة» الذي نشره مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث عام ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م. وانظر هدية العارفين ١/ ٣٧٤.

(٢) جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي صاحب الإتقان في علوم القرآن، والألفية في مصطلح الحديث، والأشباه والنظائر في الفقه، والمزهر والأشباه والنظائر في اللغة، والألفية وهمع الهوامع في النحو، والاقتراح في أصول النحو، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، وطبقات الحفّاظ، وطبقات المفسرين. ومئات من المؤلفات الأخرى انظر أسماءها في هدية العارفين ١/ ٥٣٤ ـ ٥٤٤.

بإتقان اللغة ومعرفة أصولها وقواعدها، بل أصبح أكثرهم لا يحسن فهم الكثير مما كتب بتلك اللغة في اختصاصه نفسه!

وتجاوز الأمر تلك الاختصاصات الإنسانية من تاريخية وجغرافية واجتماعية وفلسفية وأصبحت بعض الكليات الشرعية تكتفي من تعليم العربية بسويعات لا تغني ولا تكفي، وأصبح الأدب العربي نفسه اختصاصاً غير اختصاص اللغة، أعني اختصاصاً مستغنياً عن إتقان علوم اللغة، فإذا نحن أمام جيل من المختصين بالشريعة لا يتقنون لسان الشريعة، ويهزّون المنابر بفضائح ألسنتهم! وأمام جيل من الأدباء والنقّاد وأساتذة الأدب لا يتقنون المادة التي يصاغ بها الأدب!

ولم تقف غريزة التقليد عند هذا الحد بل ظهر في جيلنا، وهو جيل العجائب، من يعلن أنه صاحب اختصاص في (اللغة العربية المعاصرة)، وهو فيما قرأت في آثار أصحابه وسمعت من بعضهم اختصاص في لغة عربية جديدة! وغاية ما يسعى إليه هذا الاختصاص ترسيخ الضعف وتقعيد الخطأ وقطع صلة المختصين باللغة العربية التي عرفناها في قرآننا وتراثنا وأدبنا الرفيع. ولا شك أن نتائج هذا التخصص تنشئة جيل مختص باللغة العربية المعاصرة جاهل بلغة العرب بألفاظها وقواعدها وأساليبها. ولا شك أن هذه اللغة المعاصرة لنا اليوم ستصبح بعد قرن من الزمان لغة تقليدية رجعية لا بد للتقدّميين من المربّين والمستوردين للمبادىء والمقلّدين (MODERN ENGLISH) من أن يبحثوا في آثار عصرهم المقبل عن لغة عربية ـ أيضاً ـ تكون معاصرة لهم في عصرهم! وهكذا تكون لكل عصر لغة عربية خاصة به!

ولن أخوض الآن في مناقشة هذا الموضوع والحديث عن المناهج التعليمية وما ينبغي أن تكون عليه في ضوء الأهداف التربوية،

وسأترك ذلك إلى مناسبة قريبة إن شاء الله. ولكني أعود لبيان أثر اللغة وإتقانها في خدمة المثقف والباحث أياً كان اختصاصه، وأعرض أمثلة تدل على أن معرفة اللغة لازمة للباحث، وأن الضعف فيها يؤدي بالباحث إلى الزلل أو الانحراف أو سوء الفهم أو قصوره على الأقل، وأن اللغة العربية لا يكفي أن تكون اختصاصاً مستقلاً بذاته، بل ينبغي أن تكون في غيرأقسام اللغة العربية أساساً ورديفاً لكل اختصاص، وأن تكون معرفتها المعرفة الكافية بأصولها على الأقل هي الثقافة العامة التي يجيدها المثقفون عامة سواء أكانوا أطباء أم مهندسين بله الفقهاء والمؤرخين وعلماء النفس والاجتماع والفلسفة، وأما الأدباء والكتّاب فهم بها قبل غيرها أدباء وكتّاب، ولا بد أن تكون لهم الركن الذي يأوون إليه والمنطلق الذي منه ينطلقون.

إن اللغة من بين سائر العلوم متميزة بأنها مزدوجة المنفعة أو ثنائية الغاية، لأنها بالإضافة الى أنها علم بذاتها وسيلة لاكتساب غيرها من المعارف والعلوم. وتظهر هذه الميزة للغة العربية حين يكون البحث العلمي متصلاً بالمصادر التراثية التي صاغها أصحابها بتعبيرات لغوية وأساليب أصيلة لا يدرك بُعدها إلا من حظي من العربية بنصيب وافر. كما تظهر هذه الميزة أيضاً في كثير مما نقرأ من مؤلفات وبحوث وقراءات معاصرة في الدين والفلسفة والتاريخ وتراجم الرجال وغيرها من الموضوعات، وما نرى فيها من نقص أو قصور أو خطأ كان سببه سوء الفهم اللغوي وقلّة بضاعة الباحث من اللغة وعدم معرفته لأساليب العرب في التعبير أو خطئه في إدراك مدلولات الألفاظ.

إن بين يدي عشرات من الأمثلة لعدد من الكتّاب والباحثين الأفاضل، ضلّ أصحابها في الفهم أو الشرح، وكان الضعف في اللغة سبباً من أسباب خطئهم، وسأعرض فيما يلي بعض هذه الأمثلة ثم أقف عند اثنين منها يحتاج الأمر فيهما إلى مزيد من البيان. وليعذرني القارىء إذا أغفلت ذكر ما يدل على البحث أو صاحبه لأن الغرض

بيان شأن اللغة وأثر إتقانها في فهم النص وليس الغرض التشهير بأحد فكسل ابن آدم خطّاء وخير الخطّائين التوابون.

• كان أحد الباحثين يحقق في سنّ صحابي، يريد أن يعرف كم كانت سنّه حين دخل في الإسلام؟ وكان مما استشهد به قولهم في ترجمته: إنه دخل مكة مراهقاً. فاستنتج من ذلك أنه حين دخل مكة لم يكن بلغ العشرين من عمره.

وعدت إلى المصدر الذي أشار إليه الباحث فإذا فيه: ودخل مكة مراهقاً لآخر الوقت حتى كاد يفوته التعريف. وليس بين هذا الذي قالوه وذلك الذي استنتجه الباحث أي صلة! ولكن التعجّل والذهاب (بالمراهق) إلى المعنى المتبادر إلى الذهن هو ما دعا الباحث إلى أن يفهم ما فهم وأن يستنتج ما استنتج. ولو وقف عند تتمة الخبر وهو قولهم: لآخر الوقت حتى كاد يفوته التعريف لتنبّه على أن (المراهق) له معنى آخر غير الذي ذهب إليه.

ففي اللغة: أرهق الصلاة أي أخرّها حتى كاد يفوت وقتها ويدنو وقت الصلاة التالية. والتعريف هو الوقوف بعرفات. وما قيل عن الصحابي معناه أنه دخل مكة متأخراً في أيام الحج حتى كاد يفوته الوقوف بعرفات.

وأين هذا الذي أرادوه من ذلك الذي قيل؟!

• فسرّ أحد أساتذة التاريخ الإسلامي حديثاً ورد في نصّ تاريخي، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»، فقال: إن العاهر تحبس! ففسرّ الحجَر ـ بفتح الجيم ـ بالتسكين ـ[1].

• وصف كاتب ـ في مقالة نشرتها إحدى المجلات المعاصرة ـ رجلاً من كرام المسلمين الأوائل فقال: «انه كان مقاتلاً جريئاً وقد سجل المؤرخون جرأته وشجاعته فقالوا انه لما غادر مكة أخاف، ولا شك انه أخاف المشركين الذين كانوا يتصدون له حين هاجر من مكة».

---

١ ـ فسر الحديث بأن للعاهر الخيبة وفسره بعضهم بالرجم. وانظر إرشاد الساري ١٠/ ١١.

ونحن إذا تركنا قول الكاتب عن الرجل انه كان (مقاتلاً) وعدم وصفه بما وصفه به من انه كان مجاهداً صادق الجهاد، لأن كلمة (الجهاد) أصبحت عبئاً ثقيلاً على كثير من الناس، فإننا لا نستطيع أن نقبل تفسيره لقوله إنه (أخاف) بأنه أخاف المشركين كما فهم الكاتب، وخاصة إذا علمنا أن هذه الجملة لم ترد في سياق الحديث عن هجرته بل وردت في سياق الحديث عن حجته، ومعناها أنه غادر مكة وأتى الخَيْف من منى، والعرب تقول في هذا المعنى: أخافَ وأخْيَف، أي أتى الخيف، كما يقولون: أشأم وأعرق وأبحر فيمن دخل الشام والعراق والبحر، لأن من معاني صيغة (أفعل) التوجه نحو الشيء والدخول فيه مكاناً ـ كما رأينا في أخاف وأشأم ـ وزماناً كأضحى وأمسى وأصبح. وهكذا يتبين لنا الفرق بين ما جاء في النص وما فهمه الكاتب.

• جمع زميل كريم طائفة من أخبار نساء صحابيات وتابعيّات في كتاب وضعه بين أيدي الفتيات ليكون تذكرة لهن، وقال في حديثه عن إحدى النساء: انها بعد استشهاد زوجها أكبت على العبادة تملأ بها وقتها حتى احدودب ظهرها في آخر حياتها، ووضع بين قوسين قولهم عنها: «انها استشهد زوجها فتحدّبت». وشتان ما بين المعنيين، فحدب وأحدب واحدودب وتحادب فهو أحدب وهي حدباء، وذلك كلّه من الحدب الذي هو انحناء الظهر وبروزه، وأما قولهم تحدّبت فمن تحدّب بالشيء إذا تعلّق به، وتحدّب عليه إذا تعطّف عليه، ومنه تحدّبت المرأة إذا لم تتزوج بعد فقد زوجها تعلقاً بأولادها وتعطفاً عليهم.

جاء في القاموس المحيط: «تحدّبت المرأة: لم تتزوج وأشبلت على ولدها». وقوله: أشبلت على ولدها يعني أنها أقامت ترعاهم بعد فقد زوجها ولم تتزوج.

هذه أمثلة مما زلّت به الأقلام لعدم تثبت أصحابها من معاني الكلمات والاكتفاء بأول ما يتبادر إلى أذهانهم من تلك المعاني، على حين أن العربية واسعة غزيرة وأن القدماء من علمائنا ومؤلفينا لم يكونوا يختارون ألفاظهم عبثاً، وأن معظمهم كان متقناً للغة وأساليبها قبل تصدّيه للكتابة في اختصاصه، وإذا كانت السرعة إلى انتهاب المعاني غير مقبولة في شرح نصوص الأدب وأبيات الشعر فكيف تقبل في موضوعات الدين والشريعة والتاريخ والتراجم؟!

• وأما المثالان الأخيران فهما في حاجة الى شرح وتفصيل وتوثيق وهما كلمتا (الأحابيش) و(القارة).

ورد ذكر هاتين الكلمتين على لسان باحث فاضل، له كتابات في التاريخ الاسلامي وأحداثه ورجاله، وذلك في ندوة شاهدتها في التلفاز تناول الحديث فيها غزوة أُحد فقال: إن المؤرخين ذكروا أنه اجتمع على حرب المسلمين مشركو قريش ومن رافقهم من الأحابيش، وهم من الحبشة وغيرها من العبيد والزنوج.. وقال: وكان بعضهم قد جاء من القارّة ووفد منهم جماعة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بعد غزوة أُحد.

وهكذا أعاد الباحث (الأحابيش) إلى (الحبشة) وجعلهم عبيداً وجعل بعضهم من القارّة، ولعله بتشديد الراء لفظ يوهم أنها القارة الافريقية! وعدت إلى كتاب «سيرة ابن هشام»(١) فوجدت فيه «انه اجتمعت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحاب العير بأحابيشها»(٢).

ووجدت فيه أيضاً أنه «خرجت قريش بحدّها وجدّها وحديدها وأحابيشها ومن تابعها من بني كنانة وأهل تهامة»(٣).

---

(١) تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي.

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٦٤.

(٣) سيرة ابن هشام ٣/ ٦٥.

ووجدت فيه «قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أحد رهط من عضل والقارة»(١).

ووجدت أن محققي كتاب السيرة مهّدوا للخطأ الذي وقع فيه الباحث، فلقد شرحوا كلمة (الأحابيش) في حاشية قالوا فيها: «يريد بأحابيشها من اجتمع إلى العرب وانضمّ إليهم من غيرهم»(٢)! فقولهم (من غيرهم) يعني أن الأحابيش ليسوا من العرب مما دفع إلى توهم أنهم من الحبشة، كما دفع الخطأ في قراءة (القارّة) بتشديد الراء إلى الظن أنها إحدى القارّات وصوابها (القارة) بتخفيف الراء. والقارة عرب مضريون نزاريون عدنانيون، وأما الأحابيش فلا علاقة لهم بالحبشة وإنما هم من قبائل عربية أصيلة نُسبوا الى جبل حُبْشي القريب من مكة وفيما يلي تفصيل ذلك وإثباته:

قال ابن دريد: «والأحابيش: حلفاء قريش من بني كنانة، تحالفوا تحت جبل يقال له حُبشي فسُمّوا الأحابيش. والحباشات: الجماعات»(٣).

وقال ياقوت في معجم البلدان: «حبشي ـ بالضم ثم السكون، والشين معجمه، والياء مشدّدة ـ: جبل بأسفل مكة، بنعمان الأراك، يقال: به سمّيت أحابيش قريش، وذلك أن بني المصطلق وبني الهون بن خُزَيمة اجتمعوا عنده وحالفوا قريشاً وتحالفوا بالله (إنّا لَيدٌ واحدة على غيرنا ما سجا ليل ووضح نهار، وما رسا حُبشي مكانه) فسُمّوا أحابيش قريش باسم الجبل. وبينه وبين مكة ستة أميال. مات عنده عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق فجأة فحمل على رقاب الرجال إلى مكة»(٤).

---

(١) سيرة ابن هاشم ٣/ ١٧٨.
(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٦٤.
(٣) الاشتقاق: ١٩٣.
(٤) معجم البلدان ٢/ ٢١٤.

والتحبيش لغة: التجميع، قال الجوهري: «يقال: حبّش قومه تحبيشاً أي جمعهم. والحباشة بالضم الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة، وكذلك الأحبوش والأحابيش.. وحُبشي جبل بأسفل مكة يقال منه سمّي أحابيش قريش.. ثم ذكر أنهم بنو المصطلق وبنو الهون وذكر حلفهم وقال: فسُمّوا أحابيش قريش باسم الجبل»(١).

وقال الزّبيدي: «وحبشي بالضم وتشديد الياء التحتيه: جبل بأسفل مكة على ستة أميال منها، ومنه حديث عبدالرحمن بن أبي بكر أنه مات بالحبشي. يقال منه (أحابيش قريش)، وذلك لأنهم أي بني المصطلق وبني الهون بن خزيمة اجتمعوا عنده وحالفوا قريشاً.. فسمّوا أحابيش قريش باسم الجبل. وفي حديث الحديبية أن قريشاً جمعوا لك الأحابيش يقال هم أحياء من القارة انضمّوا إلى بني ليث في الحرب التي وقعت بينهم وبين قريش قبل الإسلام.. وما سُمّوا بذلك لاسودادهم. قال الشاعر:

ليث وديل وكعب والذي ظأرت جمع الأحابيش لمّا احمرّت الحدق

فلما سمّيت تلك الأحياء بالأحابيش من قبَل تجمعها صار التحبيش في الكلام كالتجميع. وقال ابن إسحاق: إن الأحابيش هم بنو الهون وبنو الحارث من كنانة، وبنو المصطلق من خزاعة، تحبّشوا أي تجمعوا فسُمّوا بذلك. نقله السهيلي في الروض»(٢).

وورد ذكر الحبشي والتعريف به في كتب أخرى كثيرة كنهاية ابن الأثير وسنن الترمذي ـ في أبواب الجنائز ـ وفي درّ السحابة في بيان مواضع وفيات الصحابة للصاغاني، وفي الإصابة لابن حجر، وكتاب التبيين في أنساب القرشيين للمقدسي، وكتاب الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز للنابلسي وغيرها.

---

(١) الصحاح (حبش).

(٢) تاج العروس (حبش).

فالأحابيش إذاً هم بنو الهون وبنو الحارث من كنانة، وبنو المُصطلق من خزاعة، تحبّشوا أي تجمعوا وتحالفوا عند جبل حُبشي فسُمّوا الأحابيش.

أما (الهُوّن) فهو ابن خُزيمة بن مُدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن مَعَدّ بن عدنان(١).

وأما (الحارث) فهو ابن عبد مناة بن كنانة، وبنو الحارث هم بنو الرُّشد، وكانوا يُدعون بني غَوِيّ فسمّاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بني الرشد(٢).

و(كنانة) هو ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان(٣).

وأما (بنو المصطلق) فالمصطلق اسمه جَذيمة كما ذكر ابن حزم(٤).

قال ابن دريد: «وسمّي المصطلق لحسن صوته، كأنه مفتعل من الصلق، والصلق شدة الصوت وحدّته»(٥). وبنو المصطلق بطن من خزاعة(٦)، وبنو خزاعة من بني قمعة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان(٧).

و(لُحَيّ) جد بني خزاعة اسمه ربيعة بن عامر، وابنه عمرو بن لُحَي هو أبوخزاعة.

وفي السيرة أنه صلى الله عليه وسلم قال: «رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار»(٨) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله

---

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم: ١١.
(٢) المصدر السابق: ١٨٨.
(٣) المصدر السابق: ١١ وجمهرة النسب للكلبي: ١٣٤.
(٤) جمهرة أنساب العرب: ١٣٩.
(٥) الاشتقاق: ٤٧٦.
(٦) انظر جمهرة أنساب العرب: ٤٦٨ والاشتقاق لابن دريد ٤٧٦.
(٧) جمهرة أنساب العرب: ٤٦٧.
(٨) القصب بالضم المعي، والجمع أقصاب. انظر السيرة ١/ ٧٨ و ٧٩.

صلى الله عليه وسلم قال: عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبوخزاعة. . وقال: «رأيت عَمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار، وكان أول من سيّب السوائب»(١).

وأما سبب التسمية بخزاعة فلأنهم انخزعوا، اي انقطعوا وانفصلوا، عن قومهم وفارقوهم يوم سيل العرم(٢).

وهكذا يتضح أن الأحابيش كلّهم عرب لا صلة لهم بالحبشة مكاناً ولا بالسواد لوناً.

وأما (القارة) بتخفيف الراء فهم قبيلة مشهورة بالرمي، كما جاء في المحيط للفيروزآبادي، وفصّل الزّبيدي في الحديث عن القارة فقال: «والقارة قبيلة، وهم عضل والدّيش ابنا الهون بن خزيمة بن مدركة، سُمُّوا (قارة) لاجتماعهم والتفافهم لّما أراد ابن الشدّاخ أن يفرّقهم في بني كنانة وقريش، قال شاعرهم:

دعونا قارة لا تذعرونا فَنجفلَ مثل إجفال الظليم(٣)

وهم رماة الحدق في الجاهلية، وهم اليوم في اليمن ينسبون إلى أسد والنسب إليهم قاريّ، وهم حلفاء بني زهرة»(٤).

ومن أمثالهم: أنصف القارة مَن راماها(٥).

وفي الاشتقاق لابن دريد: «أسماء إخوة هذيل هم الهون وعضل والقارة. وأن القارة سُمّوا بهذا لأن القارة أكمة سوداء فيها حجارة، وكان بعض كنانة أراد أن يفرقهم في الأحياء فقال شاعرهم. . . الخ»(٦).

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ٢٢٤ (ط دار الجيل). وانظر الحديث رقم ٤٣٤٨ من طبعة البخاري الثالثة للدكتور مصطفى البغا. ومسند أحمد ٢/ ٢٧٥ و٣٦٦ و٣/ ٣٥٣.

(٢) انظر السيرة النبوية ١/ ٩٤ والاشتقاق: ٤٦٨.

(٣) الظليم: ذكر النعامة، والجمع ظلمان بكسر الظاء وضمّها.

(٤) تاج العروس (قور). وانظر نهاية الأدب للقلقشندي: ١٤٩ والانباه على قبائل الرواة ٥٠ و٥٣ والسيرة النبوية ٣/ ١٧٨ و١٧٩ و٢٣٣ وجمهرة النسب: ١٦٦/ ١٦٧.

(٥) انظر المثل وقصته في جمهرة الامثال ١/ ٥٥ وفي تاج العروس (قور) قصة أخرى للمثل.

(٦) الاشتقاق: ١٧٨ و١٧٩ وانظر جمهرة النسب: ١٣٧ وجمهرة أنساب العرب: ١٨٠ و٤٦٥.

وقال ابن دريد: «وقد سُمّي الشدّاخ بذلك لأنه أصلح بين قريش وخزاعة وقال: شدخت الدماء تحت قدمي ـ أي وطئتها ـ»[1].

فإذا عرفنا من هم القارة عرفنا من وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أحد ممن هم. وإذا عرفنا ذلك كلّه أدركنا أن الأحابيش والقارة من قبائل العرب الأصيلة، وأنهم لا صلة لهم بالحبشة ولا بالعبيد أو الزنوج أو القارة ـ بتشديد الراء ـ.

وهكذا يتبينّ أن اللغة وسيلة إلى الفهم الصحيح في كل موضوع من الموضوعات أياً كان العلم الذي ينتسب إليه، وأنها الأداة التي لا يستغني عنها المثقف أياً كان اختصاصه، فإذا أحسنها قراءة وفهماً وأسلوباً، أجاد الفهم إذا قرأ، والتعبير إذا تحدث أو ألّف، وهذه غاية ينبغي أن تسعى إلى تحقيقها مناهج التعليم في الكليات الجامعية عامة، وكليات الشريعة والآداب خاصة.

(١) الاشتقاق: ١٧١ وفي القاموس المحيط «يعمر الشداخ حكم بين قضاعة وقصي في أمر الكعبة، وكثر القتل فشدخ دماء قضاعة تحت قدمه وأبطلها وقضى بالبيت لقصي». (شدخ).

المصـــــادر

١ ـ إرشاد الساري.
٢ ـ الاشتقاق لابن دريد. تح. عبدالسلام هارون.
٣ ـ الإنباه على قبائل الرواة لابن البر. تح. ابراهيم الابياري. دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨٥.
٤ ـ تاج العروس.
٥ ـ التبيين في أنساب القريشيين للمقدسي. تح محمد نايف الدليمي. بيروت ١٩٨٨.
٦ ـ تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني. دار الفكر ١٩٨٤.
٧ ـ جمهرة الأمثال للعسكري. تح محمد أبوالفضل ابراهيم، وعبدالمجيد طقامش. بيروت.
٨ ـ جمهرة أنساب العرب لابن حزم. تح. عبدالسلام هارون.
٩ ـ جمهرة النسب للكلبي. تح د. ناجي حسن. بيروت ١٩٨١.
١٠ ـ الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز للشيخ عبدالغني النابلسي. تح. رياض مراد ـ دمشق ١٩٨٩.
١١ ـ ديوان حسّان بن ثابت. ط. دار بيروت ١٩٨٣.
١٢ ـ السيرة النبوية لابن هشام. تح. مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي.
١٣ ـ شرح ديوان حسّان للبرقوقي. ط، دار الأندلس ببيروت.
١٤ ـ صحيح البخاري ط دار الجيل بيروت. ط ٣ د. مصطفى البغا ١٩٨٧.
١٥ ـ القاموس المحيط.
١٦ ـ مسند أحمد. ط دار الكتب العلمية ـ بيروت.
١٧ ـ معجم الأدباء لياقوت. دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
١٨ ـ معجم البلدان.
١٩ ـ نهاية الأرب في أنساب العرب للقلقشندي. ط بيروت ١٩٨٤.